الأخلاق عند المحدثين ابن القطان نموذجا

الكزرى العربي:

طالب باحث في سلك الماستر.

مستخلص البحث:

هذا البحث بعنوان: "الأخلاق عند المحدثين ابن القطان نموذجا"

تناولت فيه أبرز مظاهر الأخلاق عند المحدثين من خلال قواعد النقد عندهم، كما ذكرتُ أركان الفعل الخلقي عند المحدثين من خلال الإلزام والمسؤولية، ثم بعدها تناول البحث الأخلاق عند الإمام ابن القطان ثم عشتُ آثار أفكاره وجهوده العلمية وثمراتها الأخلاقية التي تجلت في أنه كان ناقدا مميزا ، وكان رجل فاضل من العباد الزهاد أولياء الله .

الكلمات المفتاحية: الأخلاق–المحدثين–ابن القطان.

Abstract:

This research is entitled: "Ethics among the hadiths Ibn Al-Qattan as a model" In it I dealt with the most prominent manifestations of morality among the modernists through their rules of criticism, as I mentioned the pillars of moral action among the modernists through obligation and responsibility, then after that the research dealt with the ethics of Imam Ibn Al-Qattan and then I lived the effects of his ideas, scientific efforts and their moral fruits, which were evident in that he was a distinguished critic. He was a virtuous man of the servants of asceticism, the guardians of God.

Ethics-(Al-Qattan- the hadiths)

بسم الله الرحمن الرحيم.

مقدمة:

الحمد لله رب العالمين، والصلاة السلام على خاتم الأنبياء وإمام المرسلين سيدنا ومولانا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

أما بعد:

للخُلق في الإسلام قيمة حقيقية أصيلة، وهو مقصد هام تدور حوله قضايا التكليف، باعتباره ضابطا أو ميزانا تقاس به وعلى أساسه سلوكيات المكلفين، بمعنى أن تجاوب الإنسان وصدق انتمائه لدينه إنما يعرف بمدى التزامه بقيم الإسلام في ميدان الفضيلة، ولا يفهم هذا أن الناس في الجاهلية كانوا دون تنظيمات أو تشريعات تحكمهم.

وهو ما يظهر جليا بالنظر في هدف البعثة النبوية " إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق" [1]وقد جعل الإسلام رسالته الخالدة رسالة أخلاقية، وجمع خصال النبوة الخاتمة في تتميم مكارم الأخلاق للبشرية، إذ الإنسان كائن أخلاقي أولا وأخيرا، فهو أخلاقي في تفكيره وسلوكه وتقويمه لأفعاله وأفعال غيره، فقد نجد أقواما من غير صناعة ولا يمكن أن نجد جماعة بشرية من غير أخلاق تنظم تفكيرها وتوجه تصرفاتها، ولو قصدنا مجتمعا بدائيا لعثرنا على مبادئه الأخلاقية من خلال تصرفات أفراده.

وإذا كانت الحضارة اليونانية تناولت موضوع الأخلاق منفصلا عن باقي موضوعات العلوم، فإن العلوم الإسلامية لم تنفصل عن الأخلاق ابتداء ،بل تضمنتها أصولها وفروعها، فكانت بمثابة الأساس الذي تبنى عليه صرحها العلمي والثقافي، واللحمة التي تنسج بها المعرفة، وما أصابها من مظاهر الانفصال فإنما نتج عن التقليد في مراحل ضعف الأمة الإسلامية وانبهارها بالأمم الأخرى

(1)ينظر: أخرجه البيهقي، كتاب الشهادات، باب بيان مكارم الأخلاق (192/10).

المتفوقة حضاريا [2].

ولتجلية هذا التمايز تم اختيار موضوع "الأخلاق عند المحدثين" الذين شكل موضوع الأخلاق جزءً من واقع علومهم ودراستهم، على نحو كبير جدا.. ولاتساع دائرة الأخلاق في علم الحديث وعدم القدرة على إحاطته في هذا العرض الوجيز اقتصر البحث على قواعد الجرح والتعديل للكشف عن جزء يسير من مركزية الأخلاق عندهم، وابن القطان الفاسي المغربي نموذجا هذا الشيخ لعب دورا هاما ....

أهمية البحث:

تتجلى أهمية البحث في:

1- الأهمية البالغة التي يمثلها البحث في موضوع الأخلاق في كل العصور لاسيما واقعنا المعاصر ومدى أهميتها في حياة الأفراد والمجتمعات.

2-العناية بالجوانب الأخلاقية في العلوم الإسلامية وأثرها على المجتمع.

3-كما تتجلى أهمية البحث الأخلاقي في العلوم الإسلامية هي إظهار أصالة هذا الفكر الأخلاقي ورسوخ نسبته للحضارة الإسلامية؛ فكم هي كثيرة تلك الدعاوى والافتراءات التي تقضي بخلو العلوم الإسلامية من جانب الأخلاق.

4-دراسة مصطلح الإلزام والمسؤولية الخلقية من خلال مفهوم المحدثين في الإسلام.

5-العناية بالقيم في العلوم الإسلامية وأثرها على المجتمع.

أهداف البحث:

(2) يُنظر: منقول عن مؤتمر :سؤال الأخلاق في العلوم الإسلامية: مشكلات وقضايا كلية أصول الدين تطوان،https://diae.net/58886 /

1-معرفة مظاهر الأخلاق عند المحدثين.

2-استنباط بعض القيم من خلال عمل المحدثين وخاصة ما يتعلق بقواعد الجرح والتعديل.

3-الكشف عن الجوانب الأخلاقية في حياة ابن القطان كمحدث.

مشكلة البحث:

وفي ضوء الأهمية التي يكتسبها البحث في مجال الأخلاق والدور الفعال الذي تقوم به في إصلاح المجتمعات

يمكننا أن نعبر عن مشكلة هذا البحث بالسؤال الرئيسي التالي:

ما أهم عناصر الفكر الأخلاقي عند المحدثين عامة وعند ابن القطان خاصة؟

أسئلة البحث:

ما مفهوم الأخلاق؟

ما أهم القضايا التي تشكل الفكر الأخلاقي عند أهل الحديث؟

ما أهم القيم التي تعرض لها أهل الحديث من خلال قواعد الجرح والتعديل؟

ما هي أركان الفعل الخلقي عند المحدثين؟

ما أثر الأخلاق في التصنيف والتبويب عند المحدثين؟

ما مظاهر الأخلاق عند المحدثين؟

منهج البحث:

منهج البحث: هو المنهج الوصفي الاستنباطي، وذلك من خلال استنباط بعض القيم من خلال عمل المحدثين.

خطة البحث:

يشمل هذا البحث على: مقدمة، ذكر فيها أهمية علم الأخلاق ومركزيته في العلوم الإسلامية.

المبحث الأول: العدل والإنصاف عند المحدثين.

المطلب الأول: أهمية الأخلاق عند المحدثين.

المطلب الثاني: العدل والإنصاف من خلال بعض قواعد الجرح والتعديل عند المحدثين.

المبحث الثاني: أركان الفعل الخلقي عند المحدثين.

المطلب الأول: الإلزام عند المحدثين.

المطلب الثاني: المسؤولية عند المحدثين.

المبحث الثالث: التصنيف والتبويب الأخلاقي عند المحدثين.

المطلب الأول: التصانيف الأخلاقية عند المحدثين.

المطلب الثاني: تصنيف أدبيات الأخلاق.

المبحث الثالث: الأخلاق عند ابن القطان الفاسي.

المطلب الأول: التعريف بابن القطان.

المطلب الثاني: الأخلاق عند ابن القطان.

الخاتمة

نسأل الله التوفيق والسداد.

تمهيد:

الأخلاق لغة:

قال ابن فارس: الخاء واللام والقاف أصلان: أحدهما تقدير الشيء، والآخر ملاسة الشيء.

فأما الأول فقولهم: خلقت الأديم للسقاء، إذا قدرته.

ومن ذلك الخلق، وهي السجية، لأن صاحبه قد قدر عليه. وفلان خليق بكذا، وأخلق به، أي ما أخلقه، أي هو ممن يقدر فيه ذلك. والخلاق: النصيب ; لأنه قد قدر لكل أحد نصيبه.

وأما الأصل الثاني فصخرة خلقاء، أي ملساء. [3]

ويقول ابن منظور: الخلق: الطبيعة وجمعها أخلاق والخلق: السجية، والخلقة: بمعنى الفطرة، والخلق هو الدين والطبع وحقيقته: وصف لصورة الإنسان الظاهرة والباطنة هي نفسه، وهي أوصاف حسنة وقبيحة [4]. مما يشير إلى أن الأخلاق تعد عادة تصدر عن المرء بصفة الاعتياد والممارسة حتى توصله إلى تكوين البصيرة الخلقية فالخلق سجية وصفة متأصلة في الإنسان.

الأخلاق اصطلاحا:

(3) يُنظر:معجم مقاييس اللغة، بن فارس ، (214/2).

(4) يُنظر:لسان العرب ،ابن منظور (86/10).

قال الجرجاني: "الخُلُق" عبارة عن هيئة للنفس راسخة، تَصدُر عنها الأفعال بِسهُولة وُيسر من غير حاجة إلى فكر وروية، فإن كان الصادر عنها الأفعال الحسنة، كانت الهيئة خُلُقًا حسنًا، وإن كان الصادر عنها الأفعال القبيحة، سُمِّيت الهيئة التي تصدر عنها هي مصدر ذلك خُلُقًا سيئًا [5].

وأمَّا علم الأخلاق: فهو "علمٌ موضوعه أحكام قيمية تتعلق بالأعمال التي تُوصف بالحسن أو القُبحِ" [6]

ويرى ابن مسكويه أن الخلق هو: "حال للنفس، داعية إلى أفعالها من غير فكر ولا روية، وهذه الحال تنقسم إلى قسمين: منها ما يكون طبيعياً من أصل المزاج.... ومنها ما يكون مستفاداً بالعادة والتدرب، وربما كان مبدؤه بالروية والفكر، ثم يستمر عليه أولاً حتى يصير ملكة وخلقاً".[7]

والمعنى أننا إذا أطلقنا كلمة الأخلاق إنما نعني بها الجانب الحسن، وكذلك من الممكن أن نقول: الأخلاق السيئة. ومن الواضح أن إضافة كلمة بعد كلمة الأخلاق نصف بها الأخلاق يجعلها حسب ذلك الوصف الحسن أو السيئ، والإسلام يدعو إلى الأخلاق الكريمة، وينهى عن الذميمة.

المبحث الأول: العدل والإنصاف عند المحدثين.

المطلب الأول: أهمية الأخلاق عند المحدثين.

إن تضخم الفقه وعلم الكلام كان على حساب علم الأخلاق، مما أدى إلى سوء فهم لموقع الأخلاق في الدين، وهذا ما دفعنا للبحث في مكانتها ومركزيتها عند أصحاب الحديث الذين أبرزوا الأخلاق الإسلامية في كتبهم واعتنوا بها، وكانوا هم من أوائل من أسس لحركات الزهد.

وقد ظهرت الاهتمامات المبكرة بالفكر الأخلاقي منذ عهد الصحابة- رضوان الله عليهم- والتابعين- رحمهم الله تعالى- في شكل وصايا ونصائح، أو في شكل تفسير الآيات المتعلقة بالأخلاق في القرآن الكريم.

وفي القرن الثاني الهجري بدأت الأعمال العلمية المنظمة في مجال العلوم الفقهية التي تضمنت إشارات واضحة

(5) يُنظر: كتاب التعريفات، الجرجاني، (ص 101).

(6) المعجم الوسيط، (ص252).

(7) تهذيب الأخلاق وتطهير الأعراق، ابن مسكويه ن(41/1).

إلى المجال الأخلاقي، وقد تمثلت هذه الجهود في أعمال المجتهدين الكبار من أمثال الإمام أبي حنيفة (ت 150 هـ) ، والإمام مالك بن أنس (ت 179هـ) ، والإمام الشافعي (ت 204 هـ) ، والإمام أحمد بن حنبل (ت 241) ، وقد كان هؤلاء بذواتهم قدوة، وكان ما توصلوا إليه من أحكام شكلا من أشكال الحكم الخلقي الذي ينظم حياة الناس طبقا لاجتهادات شرعية على كافة مستويات الحياة من فردية وأسرية واجتماعية، وقد كانت اجتهادات هؤلاء الأئمة مصابيح أضاءت الطريق في المجتمع الإسلامي في إطار معياري أخلاقي سليم. (8)

كما أن التبويب والتصنيف عند المحدثين أخذ أشكالا ومناهج متعددة، فنجد بعض المصنفات أولت اهتماما للجانب الفقهي أو للجانب التفسيري ،وكذلك نرى في الجوامع الحديثية كصحيح البخاري أبوابا للفقه والعقيدة إلى غير ذلك، ومن الجوانب التي لقيت عناية كبرى من المحدثين الجانب الأخلاقي أو ما يسمى بالرقاق والآداب، وفي هذا البحث نحاول أن نقدم صورة وافية عن أثر الأخلاق في التصنيف والتبويب عند المحدثين عبر بعض المصنفات الحديثية التي اهتمت بالجانب الأخلاقي من الحديث النبوي وعن تأثير الأخلاق في تطور " التبويب والتصنيف "عندهم .

فما هي أبرز مظاهر الأخلاق عند أهل الحديث، وأبعادها من خلال بعض قواعد الجرح والتعديل؟

المطلب الثاني: العدل والإنصاف من خلال بعض قواعد الجرح والتعديل.

إن من أبرز مظاهر الأخلاق عند المحدثين حديثهم عن حسن النية في الطلب والأداء، وتقدير من هو أكثر علما وعدم التقدم عليه، يقول في ذلك الإمام النووي " علم الحديث شريف يناسب مكارم الأخلاق، ومحاسن الشيم، وهو من علوم الآخرة. من حرمه حرم خيراً عظيماً، ومن رزقه نال فضلاً جزيلاً، فعلى صاحب تصحيح النية، وتطهير قلبه من أغراض الدنيا" (9)، وعنايتهم بالصدق والعدالة في الراوي، ومن ذلك أيضا وضعهم للقواعد الجرح والتعديل، الذي كان معتمدهم الأساس فيه على المعايشة والمخالطة ومعاينة واقع ومن غير مجازفة، ومرد ذلك لإحساسهم بالإلزام والمسؤولية الأخلاقية في عملية النقض لارتباطها بأعراض الناس وحفظ الدين. وفيما يلي بيان للبعد الأخلاق

(8) يُنظر: نضرة النعيم في مكارم أخلاق الرسول الكريم ، عدد من المختصين (69/1).

(9) التيسير لمعرفة سنن البشير النذير في أصول الحديث، النووي، (ص79).

في قواعد النقد عندهم:

أولا: ذكر الجرح والتعديل في الراوي المختلف فيه وعدم الاقتصار على ذكر الجرح فقط.

المحدثون إذا ترجموا لراوٍ قد اختلفت عبارات العلماء في حاله بين موثق ومجرح له، لم يستجيزوا لأنفسهم الاقتصار على ذكر الجرح فقط بل لابد أن يذكروا معه ما بلغه في حاله من تعديل، وكان دافعهم إلى ذلك تحقيق القيام بالعدل كما أمر الله.

ومن هنا جاءت تحذيرات هؤلاء الأئمة من الاقتصار على الجرح مع وجود التعديل واعتبار ذلك من الظلم يقول الإمام بن سيرين (ت 110هـ): "ظلمت أخاك إذا ذكرت مساوئه ولم تذكر محاسنه" [10] [11].

وشدّد الحافظ الخطيب البغدادي (ت 463هـ)، على وجوب ذكر الجرح والتعديل إذا اجتمعا في الراوي وعدم جواز الاقتصار على أحدهما فقال: " إذا اجتمع في أخبار رجل واحد معانٍ مختلفة من المحاسن والمناقب والمطاعن والمثالب وجب كَتْبُ الجميع ونقله وذكر الكل ونشره "[12]، وهذه قمة العدل والإنصاف منهم رحمهم الله جميعا.

ثانيا: عدم محاباة أحد من المجروحين قريبا كان أو بعيدا وذكره بما فيه من الجرح.

وهذا الأمر من أوضح الأدلة على أخلاقهم والتزامهم الحق وعدم مداهنتهم أو مجاملتهم لأحد، فقد تكلم بعضهم في آبائهم وبعضهم في أبنائهم وبعضهم في أخوانهم وبعضهم في أختانهم وأصدقائهم يقول الإمام الورع، والحذر، والمبالغة في الاحتياط والتيقظ.

يقول الإمام الذهبي: " الكلام في الرواة يحتاج إلى ورع تام، وبراءة من الهوى والميل، وخبرة كاملة بالحديث

(10) الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع، الرقم (1618)، (2/ 202).

(11) يُنظر: مظاهر الإنصاف عند المحدثين في جرح الرواة، (3/1).

(12)الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع، الرامهرمزي ،(2/ 202).

وعلله ورجاله " [13]. وهذا يستلزم مراقبة الله تعالى في حرمة دينه من جهة، وحرمة أعراض الرواة من جهة أخرى، ويوجب مبالغة في الاحتياط في التحقق قبل إرسال العبارات بالتعديل أو التجريح.

كما يوجب ترك العصبية لأحد أو على أحد، والنظر بعين الإنصاف والعدل، وإن كان ذلك صعباً شديداً. يقول ابن حبان:" سئل علي بن المديني عن أبيه؟ فقال: " اسألوا غيري " فقالوا: سألناك، فأطرق، ثم رفع رأسه وقال: " هذا الدين، أبي ضعيف " "[14].

وهذا يحيى بن معين يتكلم في صاحب له ممن كان يحبه، فنقل عنه الحسين بن حبان قوله في (محمد بن سليم القاضي): " هو _ والله _ صاحبنا، وهو لنا محب، ولكن ليس فيه حيلة البتة، وما رأيت أحداً قط يشير بالكتاب عنه ولا يرشد إليه "، وقال: " قد _ والله _ سمع سماعاً كثيراً، وهو معروف، ولكنه لا يقصر على ما سمع، يتناول ما لم يسمع "، قلت له: يكتب عنه؟ قال: " لا ". وفي رواية ابن أبي خيثمة، قال: سمعت يحيى بن معين يقول: " ليس بثقة "، قلت: لم صار ليس بثقة؟ قال: " لأنه يكذب في الحديث " [15]. والقاعدة في أئمة هذا الشأن الشهرة بالدين والصلاح والورع[16] ، وميزتهم الإنصاف والإخلاص للحق، والبعد عن العصبية والهوى.

ثالثا :عدم الاعتداد بجرح الأقران.

فتشارك الراوي ومن روى عنه، في أمر من الأمور المتعلقة بالرواية: مثل السن، واللقى، والأخذ عن المشايخ هو: رواية الأقران؛ لأنه حينئذ يكون راويا عن قرينه. [17]

وقد رد العلماء كلام بعضهم في بعض ولم يقبلوه، لأنه ناشئ عن حسد وعداوة ، وما كان كذلك فحقه الرفض وعدم القبول ، وقد نص غير واحد من الأئمة المتقدمين والمتأخرين علي ذلك ولم يؤثر عن أحد منهم أنه خالف فيه مما يعتبر إجماعا، ومن هؤلاء الأئمة الذين نصوا على هذا : عبد الله بن عباس بن عبد المطلب الصحابي

(13) الموقظة في علم مصطلح الحديث، الذهبي، (ص60).

(14) المجروحين، ابن حبان (2/ 15).

(15) يُنظر: تاريخ بغداد، الخطيب البغدادي، (5/ 326).

(16) يُنظر: تحرير علوم الحديث، الجديع، (ص214)

(17) يُنظر: نزهة النظر في توضيح نخبة الفكر في مصطلح أهل الأثر، بن حجر العسقلاني، (ص149).

الجليل (ت 68 هـ)حيث قال : " استمعوا علم العلماء ولا تصدقوا بعضهم على بعض فو الذي نفسي بيده لهم أشد تغايراً من التيوس في زربها"، ومالك بن دينار البصري الزاهد (130هـ) إذ قال: "يؤخذ بقول العلماء والقراء في كل شيء إلا قول بعضهم في بعض فإنهم أشد تحاسداً من التيوس تنصب لهم الشاة الضارب فينب هذا من هاهنا وهذا من هاهنا "[18] [19]. وتذكر هنا القاعدة المشهورة بين العلماء "كلام الأقران يطوى ولا يروى".

رابعا: عدم قبول الجرح إذا كان صادراً عن جهل أو هوى أو ضعف أو تعب أو اختلاف العقيدة.

وهذا الأمر عند المحدثين شبه مجمع عليه ويدل دلالة بينة على ورعهم وصيانتهم وإنصافهم، وهذا مقتضى العقل والعدل الذي قامت عليه السماوات والأرض لأن بواعثه المذكورة ليست علمية ولا شرعية فلأجل ذلك اقتضى العقل والشرع رده وعدم قبوله وقال الذهبي: " والكلام في الرواة يحتاج إلى ورع تام، وبراءة من الهوى والميل، وخبرة كاملة بالحديث وعلله ورجاله " [20].

ومن أمثلة الجرح المردود بسبب اختلاف العقيدة الجرح بسبب انتحال بعض البدع كالقول بالقدر ورأي الخوارج، والإرجاء والتشيع، ونحوها، وفي الصحيحين خلق ممن وصف بذلك لم يمنع صاحبي الصحيحين ولا غيرهما من الأئمة من الاحتجاج بهم، ولم يلتفتوا على جرح من جرحهم بها لكونها ليست مكفرة ولأنهم لم يرووا ما يقويها ويؤيدها. [21]

خامسا:عدم الزيادة في الجرح على القدر المطلوب.

و من مظاهر تخلقهم أيضا، أنهم إذا جرحوا شخصاً ما لا يذكرونه بما ليس فيه، ولا يعدّدون عليه هفواته وزلاته التي لا صلة لها برد حديثه، بل يقتصرون على الجرح الثابت فيه ولا يزيدون، ويعتبرون الزيادة على ذلك من الغيبة المحرمة شرعاً ، وعلى هذا جميع العلماء متقدمهم ومتأخرهم، بل نحا بعضهم إلى ما هو أخص من ذلك ، وهو أنه

(18) يُنظر: المصدر السابق ،(ص441).

(19) يُنظر: مظاهر الإنصاف عند المحدثين في جرح الرواة ،(ص 10).

(20)الموقظة في علم مصطلح الحديث(ص 82).

(21) يُنظر: مظاهر الإنصاف عند المحدثين في جرح الرواة، (ص6).

إذا وُجِدَ في المجروح ذنبان وجب الاقتصار على التجريح بأصغرهما ويتخير أحدهما إذا استويا. [22]

يقول أبو الوليد الباجي (ت 474هـ):"وإنما يجوز للمجرح أن يذكر المُجرح بما فيه مما يرد حديثه لما في ذلك من الذب عن الحديث، وكذلك ذو البدعة يذكر ببدعته لئلاّ تغتَّر به الناس حفظاً للشريعة وذبّا عنها ولا يذكر غير ذلك من عيوبه لأنه من باب الغيبة قال سفيان الثوري في صاحب البدعة: يذكر ببدعته ولا يغتاب بغير ذلك، يعني . والله أعلم . أن يورد ما فيه لا على وجه السبّ له، أو يقال فيه ما ليس فيه فأما أن يذكر ما فيه مما يسلم دينه على وجه التحذير منه فليس من باب الغيبة" [23].

سادسا: عدم التعرض بالجرح لمن ليس بمجروح أو ليس من أهل الرواية.

يجمع المحدثون على أنه لا يجوز جرح راو سليم من الجرح لم يثبت فيه شيء يخل بضبطه ولا عدالته لأن في ذلك غيبةً له وعاراً عليه، ورداً لحديثه وإبطالاً لسنة من سنن النبي ﷺ، وكذلك من ليس من أهل الرواية لا يجوز جرحه لكونه لا صلة له برواية الحديث ، وإنما جوز العلماء الجرح بما فيه من الذب عن سنة النبي ﷺ وهذا ليس من رواتها ولا المشتغلين بها، غير أن العلماء استثنوا من ذلك أهل البدع والضلال وإن لم يكن لهم رواية فيجوز جرحهم وتبيين بدعهم وضلالهم للناس من غير تعدّ عليهم ولا زيادة أو نقصان قال ابن الصلاح : "ثم إن على الآخذ في ذلك أن يتقي الله تبارك وتعالى ويتثبت ويتوقى التساهل كيلا يجرح سليماً ويسم بريّاً بسمة يبقى عليه الدهر عارها "[24] [25].

سابعا: شروط وقواعد للجرح لا يقبل بغيرها.

أجمع العلماء على أن الجرح لا يقبل من كل أحد ولا في كل أحد، ومن هنا فقد اجتهدوا في

(22) يُنظر: مظاهر الإنصاف عند المحدثين في جرح الرواة (ص27).

(23)التعديل والتجريح لمن خرج له البخاري في الجامع الصحيح، أبو الوليد الباجي، (283/1).

(24)مقدمة ابن الصلاح، (ص492).

(25) يُنظر: مظاهر الإنصاف عند المحدثين في جرح الرواة (ص28).

وضع شروط معينة للجرح حتى يكون مقبولاً ومعمولاً به، وقد انطلقوا في اجتهادهم هذا من أمرين أساسيين:

الأول: حفظ الدين.

والثاني: حرمة عرض المسلم.

وعلى ضوء هذين الأمرين تم وضع هذه الشروط، وهذا إن دل على شيء فإنما يدل على كمال إنصافهم وغاية ورعهم وتقواهم، حيث إن حفظ الدين من أوجب الواجبات كما أن حفظ عرض المسلم وعدم انتهاكه من الواجبات كذلك، فاستطاعوا بما آتاهم الله تعالى من العلم والحكمة أن يوفقوا بين واجب حفظ الدين وواجب حفظ عرض المسلم بوضع شروط جامعة مانعة تحفظ الحق وتمنع الظلم وهذه يجب أن تتوفر في المعدل والمجرح. [26]

ويشترط في الجارح والمعدل العلم والتقوى والورع والصدق والتجنب عن التعصب ومعرفة أسباب الجرح والتزكية ومن ليس كذلك لا يقبل منه الجرح ولا التزكية وقال الحافظ ابن حجر في شرح نخبته إن صدر الجرح من غير عارف بأسبابه لم يعتبر به وقال أيضا تقبل التزكية من عارف بأسبابها لا من غير عارف وينبغي ألا يقبل الجرح إلا من عدل متيقظ. [27]

ثامنا: اختيار ألفاظ الجرح المناسبة لكل راو ضعيف.

إن الضعفاء عند المحدث ليسوا على مرتبة واحدة في الضعف، فهم متفاوتون في ذلك، منهم الضعيف المحتمل ضعفه المحتمل بحديثه، ومنهم الضعيف الشديد الضعف، ومنهم من بلغ الغاية في الضعف، وقد جعلوا لكل مرتبة من هذه المراتب ألفاظاً خاصة بها يعرف بها مقدار ضعف صاحبها، ولم يستجيزوا أن يوصم من يحتمل ضعفه بعبارات من لا يحتمل ضعفه عن قصد، لأنه يخرج بهذا من دائرة الاعتبار إلى دائرة ردّ حديثه وعدم الاعتبار به. [28]ولا شك أن هذا منهم غاية في الإنصاف والعدل بتميزهم ألفاظ كل مرتبة عن الأخرى.

(26) يُنظر: المرجع السابق، (ص36).

(27) يُنظر: الرفع والتكميل في الجرح والتعديل، اللكنوي، (ص 68)، وبحوث في المصطلح، الدكتور ماهر ياسين الفحل، (ص354).

(**28**) **يُنظر: مظاهر الإنصاف عند المحدثين في جرح الرواة، (ص38).**

المبحث الثاني: أركان الفعل الخلقي عند المحدثين.

المطلب الأول: الإلزام عند المحدثين.

الإلزام هو القاعدة الأساسية، والمدار، والعنصر النووي الذي يدور حوله كل النظام الأخلاقي، فأي عمل يوجه إليه الإسلام لا بد أن يكون موصوفا بالصفة الخلقية، فالواجب، والخير وغيرهما يقومان على فكرة القيمة، التي تستمد من مثل أعلى، وفي الأخلاق الإسلامية فإن الوحي والعقل يعتبران المصدر الأساسي للإلزام الخلقي، جنبا إلى جنب، باعتبارهما مستويين للمصدر الخلقي، وعلى هذا فيمكن التعبير عن ذلك بالمصدر الفطري، والمصدر الموصي به.

والإلزام الخلقي في الإسلام يستند إلى ما قرره الإسلام عن طبيعة الإنسان من حيث كونه حرّا مختارا وهدى إلى طريقي الفضيلة والرذيلة، ففي الإنسان من حيث كونه فاعلا، عنصر أخلاقي بالمعنى الحق، وفي الأمر الخلقي عنصر آخر هو العقل والحرية، والمشروعية، وتلكم هي العوامل الأساسية في الالتزام الخلقي، ولذا كان القرآن يقف موقفا دافعا أمام عدوين خطيرين للأخلاق الإسلامية، أولهما: إتباع الهوى دون تفكير، والثاني: الانقياد الأعمى دون تمييز. إذن فالإلزام الخلقي يقوم على مصدرين أساسيين أولهما: النور الفطري، والثاني: النور الشرعي. والأمر اختيار حر دنيوي ليس مفروضا علويا، ويرجع إلى استخدامنا الحسن أو السيء لملكاتنا وقدراتنا وهي ملكات يزكي تثقيفها النفس، كما يدسيها ويطمسها إهمالها {قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا، وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا} [الشمس 9،10]. (29)

ويبرز مفهوم الإلزام عند المحدثين في روايتهم للأحاديث التي ذكرت وجوب السنة باعتبارها مصدر تشريعي أساسي، قال سفيان الثوري " واعلم أن السنة سنتان، سنة أخذها هدى وتركها ضلالة، وسنة أخذها هدى وتركها ليس بضلالة ". (30) (31)

ويقول ابن تيمية " أن السنة التي يجب إتباعها ويحمد أهلها ويذم من خالفها: هي سنة رسول الله ﷺ: في أمور

(29) يُنظر: دستور الأخلاق في القرآن، محمد بن عبد الله دراز، (ص29).

(30) فصل الخطاب في الزهد والرقائق والآداب، محمد نصر الدين محمد عويضة، (844/1).

(31) يُنظر: الإلزام والمسؤولية الخلقية عند المحدثين والفقهاء في الإسلام وارتباطها بالإيمان، بدرية محمد عبد الله الفوزان، (ص 15).

الاعتقادات وأمور العبادات وسائر أمور الديانات. وذلك إنما يعرف بمعرفة أحاديث النبي ﷺ الثابتة عنه في أقواله وأفعاله وما تركه من قول وعمل". [32]

ويستند هذا الاصطلاح إلى الأدلة الكثيرة من الكتاب والسنة الدالة على أن السنة وحي يلزم إتباعها، وأنها شقيقة القرآن الكريم ومثيلته في الحجة والاعتبار، وأنها مصدر للدين: وقد أمرنا الله- عز وجل- بإتباع الرسول في كثير من آيات القرآن، يقول سبحانه: {فَلا وَرَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيما شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجاً مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيماً} [النساء: 65].

وقال ﷺ:«بلغوا عني ولا تكذبوا فرب مبلغ أوعى من سامع، ورب حامل فقه إلى من هو أفقه منه».[33] وهذه الأدلة دليل على الإلزام بها.

المطلب الثاني: المسؤولية عند المحدثين.

المسئولية تفترض الإلزام ويتبعه جزاء، والإنسان مكلف والأخلاق الإسلامية قائمة على التكليف فالأخلاق الإسلامية قائمة على المسئولية التي تلزم الإنسان بالعمل الخلقي، والمسئولية معناها "هو تحمل الشخص نتيجة التزاماته وقراراته واختياراته العملية من الناحية الإيجابية والسلبية أمام الله في الدرجة الأولى وأمام ضميره في الدرجة الثانية وأمام المجتمع في الدرجة الثالثة " [34].

وقد ثبت أن الإنسان لديه أهلية للقيام بهذه المسئولية، والقيام بها شرف للإنسان، وعلى هذا نجد أنفسنا أمام أنواع من السلطة التي تحدد المسئولية، وهي:

1- سلطة داخلية، أي إلزام الفرد نفسه بإرادة وقصد وتصميم، وهناك العزم على فعل شيء وهذا كاف لتحمل مسئولياته إن خيرا فخير وإن شرّا فشر.

(32) مجموع الفتاوى، ابن تيمية، (378/3).

(33) أخرجه أبو داود في كتاب العلم، باب (10) حديث رقم (3660) 3/ 322، والترمذي في كتاب العلم، (2656) ،5/ 33.

(34) علم الأخلاق الإسلامية، مقداد يالجن، (ص 252).

2-سلطة خارجية أي إلزام من خارج النفس، كأن يتلقى المسئولية من أناس آخرين، أو من سلطة أعلى. [35]

وأيا كان الأمر، فإن الإنسان يكون مسئولا أمام نفسه، أو أمام الإنسان وأمام المجتمع، أو أمام الله عزوجل، هذا ما يعنيه التقسيم السابق، ومع هذا فإن الإنسان يظل مسئولا عن كل شيء أمام الله تعالى.

والأساس الذي تقوم عليه المسئولية فهو أهلية الشخص المسئول للقيام بالمسئوليات التي يتحملها ويلتزم بها سواء كان بإلزام أم بالتزام، والكلمات التي تتطابق مع المسؤولية هي الخلافة، التكليف، الأمانة.

عن ابن عمر رضي الله عنهما، عن النبي ﷺ قال: "كلكم راع، وكلكم مسؤول عن رعيته: والأمير راع، والرجل راع على أهل بيته، والمرأة راعية على بيت زوجها وولده، فكلكم راع، وكلكم مسؤول عن رعيته». [36]

فكل من جعله الله أمينًا على شيء، فواجب عليه أداء النصيحة فيه، وبذل الجهد في حفظه ورعايته؛ لأنه لا يسأل عن رعيته إلا من يلزمه القيام بالنظر لها وصلاح أمرها. [37]

ولهذا فمنهج المحدثين تمثل بتحمل مسؤولية خلقية عظيمة، تتمثل في التحري والتدقيق والنقد الكثير للإسلام وجمع الحديث المبني على الأصول والقواعد، البعيد عن الأهواء والنزعات.

يقول الذهبي "ونحن لا ندعي العصمة في أئمة الجرح والتعديل، لكن هم أكثر الناس صوابا، وأندرهم خطأ، وأشدهم إنصافا، وأبعدهم عن التحامل، وإذا اتفقوا على تعديل أو جرح، فتمسك به، وأعضض عليه بناجذيك، ولا تتجاوزه، فتندم ". [38].

ويقول الإمام ابن حجر موضحا حجم استشعارهم المسؤولية الخلقية في تبليغ الحديث: وليحذر المتكلم في هذا الفن من التساهل في الجرح والتعديل، فإنه إن عدل أحدا بغير تثبت؛ كان كالمثبت حكما ليس بثابت، فيخشى عليه أن يدخل في زمرة "من روى حديثا وهو يظن أنه كذب " وإن جرح بغير تحرز، فإنه أقدم على الطعن في مسلم

(35) يُنظر: نضرة النعيم في مكارم أخلاق الرسول الكريم، 106/1.

(36) أخرجه: البخاري 7/ 41 (5200)، ومسلم (6/ 7) (1829) (20).

(37) يُنظر: شرح صحيح البخاري، ابن بطال، (322/7).

(38) يُنظر: سير أعلام النبلاء، (82/11).

بريء من ذلك، ووسمه بميسم سوء يبقى عليه عاره أبدا. [39] .

ومن شروط تحمل المسؤولية، النية، ويظهر دورها في الأخلاق الإسلامية باعتبارها شرطا ضروريا، وعلى ذلك فهي شرط للمسؤولية عند المحدثين، لقول المصطفى «إنما الأعمال بالنيات»[40] ، حيث يفيد الحديث أن الأعمال لا قيمة لها إلا بالنية، وعلى هذا فالأعمال لا توجد أخلاقيا إلا بالنية.

يقول ابن الصلاح في مقدمته: "فمن أراد التصدي لإسماع الحديث، أو لإفادة شيء من علومه، فليقدم تصحيح النية وإخلاصها، وليطهر قلبه من الأغراض الدنيوية وأدناسها، وليحذر بلية حب الرياسة، ورعوناتها". [41]

ومن أقرب الوجوه في إصلاح النية، ما روي عن أبي عمرو إسماعيل بن نجيد أنه سأل أبا جعفر أحمد بن حمدان فقال له: بأي نية أكتب الحديث؟ فقال: ألستم ترون أن عند ذكر الصالحين تنزل الرحمة؟ قال: نعم، قال: فرسول الله – صلى الله عليه وسلم – رأس الصالحين. وليسأل الله التيسير والتأييد والتوفيق والتسديد، وليأخذ نفسه بالأخلاق الزكية، والآداب المرضية، فقد روينا عن أبي عاصم النبيل أنه قال: "من طلب هذا الحديث فقد طلب أعلى أمور الدين، فيجب أن يكون خير الناس" [43][42].

المبحث الثالث: دور الأخلاق في التصنيف الحديثي والتبويب.

المطلب الأول: المصنفات الأخلاقية عند المحدثين.

لم يجمع المحدثون الذين جمعوا كتبا عامة –كالجوامع والسنن– الأحاديث الأخلاقية في باب واحد، أو كتاب واحد، بل وزعوها تحت عدة كتب وأبواب. [44]

والجدول التالي يبين التبويب الأخلاقي عند أصحاب الكتب الستة:

(39) يُنظر: نزهة النظر في توضيح نخبة الفكر في مصطلح أهل الأثر، بن حجر العسقلاني، (ص139).

(40) رواه البخاري، بكتاب الإيمان حديث 1، ورواه مسلم كتاب الإمارة، حديث(155).

(41) يُنظر: معرفة أنواع علوم الحديث، ابن الصلاح، (ص 236).

(42) أخرجه: الخطيب في " الجامع لأخلاق الراوي ": الرقم (6)، (78/1).

(43) يُنظر: معرفة أنواع علوم الحديث، ابن الصلاح، (ص246).

(44) يُنظر: مكانة الأخلاق عند أهل الحديث ودروها في التصنيف عندهم، محمد صديق، (ص7).

اسم المصنف	اسم الكتاب الذي حوى الأحاديث الأخلاقية
جامع البخاري	كتاب الأدب، كتاب الرقاق
صحيح مسلم	كتاب الآداب، كتاب البر والصلة والآداب، كتاب الزهد والرقائق.
سنن أبي داود	كتاب الأدب.
سنن النسائي	الإيمان وشرائعه
سنن الترمذي	أبواب البر والصلة، أبواب الأدب.
سنن ابن ماجه	أبواب الأدب، أبواب الزهد،

وكتب الأدب والآداب اختصت بالتأسيس للعلاقات الاجتماعية كأبواب صلة الرحم وبر الوالدين والمظهر الحسن للإنسان كالتجمل وما يتعلق بعدم التكبر، وكتب البر والصلة اختص بموضوع التواصل مع الآخرين والإحسان إليهم، أما أبواب الزهد فاختصت بالتحفيز على ترك الانشغال بالدنيا والتوجه نحو الآخرة. (45)

المطلب الثاني: تصنيف أدبيات الأخلاق.

1-نجد أن قسما منها يخاطب المجتمع بالقواعد الأخلاقية الناظمة لشؤون حياتهم دون استهداف لفئة معينة، وهذا ما غلب على الجوامع الأخلاقية كالأدب المفرد للإمام البخاري.

(45) يُنظر: المصدر السابق،(ص7).

2-وهناك صنف يتحدث عن أخلاقيات خاصة بفئة خاصة، مثل الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع للخطيب البغدادي 463هـ، وأخلاق حملة القرآن للآجري 360هـ.

3-وهناك كتب اختصت بجانب واحد من الجوانب دراسات أخلاقية في موضوع واحد كالبر والصلة للحسين بن الحسن بن حرب (246هـ)، وأدبيات الزهد كالزهد لأحمد بن حنبل (241 هـ)، وقد سلك بعضهم مسلكا يجمع فيه الأحاديث الناهية عن الأخلاق المذمومة كالتوبيخ والتنبيه لأبي الشيخ الأصبهاني (369هـ)، ومنهم من جمع أخلاق النبي كأخلاق النبي للأصفهاني.

4- وبعض الكتب قد اقتصرت على سرد الأحاديث بعد التبويب دون شرح وهذه عادة أكثر المحدثين، وبعضها الآخر أضاف إليها شرحا يطول ويقصر حسب الحاجة ككتاب روضة العقلاء ونزهة الفضلاء لابن حبان (354هـ). (46)

يجدر التنبيه إلى أن نقاد المحدثين هدفوا إلى توسيع دائرة أحاديث الرقاق فشرطوا فيها شروطا أخف من شروط أحاديث الأحكام، ونقل عنهم أنهم قالوا: " إذا روينا في الحلال والحرام شددنا، وإذا روينا في الفضائل ونحوها تساهلنا" (47)ف هذا التوجه المتساهل منهم ينبئ عن توجه أخلاقي/تربوي رغم أنه لا يخلو من مشاكل فهذا التساهل في روايتها دفع البعض إلى توسيع دائرتها بشكل سلبي عبر وضع الأحاديث في الفضائل بهدف إدخالها إلى دائرة الدين، وهذا كان له أثر سلبي واضح. (48)

المبحث الرابع: الأخلاق عند ابن القطان.

المطلب الأول: التعريف بابن القطان.

لقد اشتهر ابن القطان عند رجال الحديث والفقه من خلال مؤلفاته القيِّمة، التي برهن فيها على قدرته العلمية الواسعة، واطِّلاعه الكبير، فكان في كثير ممَّا انتهى إليه من الآراء والأحكام حجةً.

(46) يُنظر: مكانة الأخلاق عند أهل الحديث ودروها في التصنيف عندهم، محمد صديق، (ص8).

(47) يُنظر: تدريب الراوي، جلال الدين السيوطي، (351/1).

(48) يُنظر: منهج النقد، نور الدين عتر، (ص 312).

ولم يظفر بهذا المستوى العلميّ الذي انتهى إليه ابن القطان من حيث سعة اطلاعه على الحديث رواية ودراية، إلا نزر قليل في كلِّ طبقة من طبقات الحفاظ المحدِّثين، كشعبة بن الحجاج، وسفيان الثوري، ووكيع بن الجراح، ويحيى بن معين، وعلي بن المديني. . .. وغيرهم.

فمَن هو الإمام ابن القطان؟

اسمه ونسبه:

هو أبو الحسن علي بن محمد بن محمد بن عبد الملك بن يحيى بن محمد ابن إبراهيم بن خلصة بن سماحة، الحميري، الكتامي، الفاسي المولد والمنشأ، نزيل مراكش، اشتهر بابن القطان. (49)

ولد بفاس فجر يوم عيد الأضحى سنة اثنتين وستين وخمسمائة (562 هـ)، وتوفي بين العشاءين من أول ليلة من شهر ربيع الأول من سنة ثمان وعشرين وستمائة (628 هـ)، ودفن بالركن الواصل بين الصحنين الشمالي والغربي من الزنقة لصق الجامع الأعظم بسجلماسة، وقال ابن عبد الملك:(وقبره معروف هناك إلى الآن). (50)

مكانته العلمية:

بقيت شخصية ابن القطان مغمورة منذ عهود بعيدة رغم ما عرف به من سعة العلم وقوة الحفظ وكثرة الإنتاج في الأوساط العلمية، فهو لا يقل عن الأعلام الذين ظفروا بالدراسة الواسعة.. وقد أدى الإغفال عن مثل هذه الشخصية المغربية العظيمة، إلى طمس الجانب العلميّ الذي انتهى إليه المغاربة، وخصوصًا في علم الحديث، الذي يعتبر ابن القطان أحد أعلامه البارزين فيه رواية ودراية.. وأصبح من المشهور لدى المشارقة أن المغاربة لم يظهر لهم نجم في علم الحديث، وإنما انصبَّتْ دراساتهم على علم الفروع فقط.

(49) يُنظر: الذيل والتكملة، (8 / 165).

(50) يُنظر: المصدر السابق، (8/ 19).

ولذلك وجب على الباحث المغربي أن يتَّجه إلى تراث أسلافه الكرام، ليقيم في ضوئه دراسات وبحوثًا، ويظهر من خلالها المكانة العلمية التي انتهى إليها المغاربة في جميع العلوم، ومنها علم الحديث.. والاهتمام بمثل شخصية ابن القطان يكشف النقاب عن حقيقة المغاربة في الميدانِ العلميِّ، وما خلّفه علماؤه الأمجاد من التراث الخالد.

وقال ابن الزبير (ت 708 هـ): "وكان ذاكرًا للرجال والتاريخ، عارفًا بعلل الحديث، نقّادًا ماهرًا"[51].

أما علماء المشرق الذين اطَّلعوا على إنتاجه العلميِّ، فنجدهم يُضفون عليه كلَّ الصفات التي لها يظفر بها إلا القليل من العلماء الأفاضل.

فهذا الحافظ جمال الدين بن مسدي يقول فيه ما نصُّه: "كان معروفًا بالحفظ والإتقان، ومن أئمة هذا الشأن"[52].

والحافظ العراقي يقول فيه في كتابه، "طرح التثريب": "أحد الحفّاظ الأعلام، صاحبا كتاب: بيان الوهم والإيهام" [53].

ويمكن الاستدلال على المكانة العلمية التي كانت لأبي الحسن بن القطان كذلك بعدة أشياء؛ منها:

- ✓ وفرة الشيوخ وكثرة التلاميذ.
- ✓ المكانة التي حظي بها لدى البلاط الموحدي.
- ✓ المصنفات القيمة التي صنفها.
- ✓ كثرة النقول عنه في أمهات كتب الحديث، لكبار المحدثين
- ✓ – الأخذ بأحكامه واعتمادها من طرف الحفاظ من المحدثين.
- ✓ ثناء العلماء عليه كما سبق.

هذه أقوال العلماء وشهاداتهم في أبي الحسن بن القطان، ويلاحظ أنها مجمعة على وصفه بالحفظ والنقد والمعرفة بصناعة الحديث، وكفاه شرفا بذلك، رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى.

(51) صلة الصلة، (ص132).

(52)يُنظر: تذكرة الحفّاظ، الذهبي ،(134/4).

(53) طرح التثريب في شرح التقريب، العراقي ،(1/ 87).

إنتاجه العلمي:

نذكر من مؤلفاته ما يلي:

- ✓ كتاب بيان الوهم والإيهام، الواقعين في كتاب الأحكام.
- ✓ الإقناع في مسائل الإجماع.
- ✓ إحكام النظر في أحكام النظر.
- ✓ وله مؤلفات أخرى كثيرة ذكر أغلبها ابن عبد الملك في كتابه "الذيل والتكملة"، منها:
- ✓ البستان في أحكام الجنان، مجلدان متوسطان.
- ✓ إنهاء البحث منتهاه، عن مغزى من أثبت القول بالقياس ومن نفاه".
- ✓ شيوخ الدارقطني، مجلد متوسط.
- ✓ تجريد من ذكره الخطيب في تاريخه من رجال الحديث بحكاية أو شعر".
- ✓ كتاب ما حاضر به الأمراء، مجلد متوسط.
- ✓ أبو قلمون، مجلدان ضخمان. (54)

هذه بعض من مؤلفات أبو الحسن (ذكر ابن الآبار منها 38 مؤلف)، تُظهر لنا قيمته العلمية، ومشاركته الواسعة، وقد اعتمدها المحدثون والفقهاء من بعده.

المطلب الثاني: الأخلاق عند ابن القطان.

لابن القطان باع كبير في علوم السنة النبوية وخاصة الجرح والتعديل دون تفريط أو تقصير في بقي الفنون، فكان عاكفا على خدمة حديث النبي صلى الله عليه وسلم ناقدا مميزا صحيحه من سقيمه عارفا برجاله بصيرا بطرقه .تبرز جهود ابن القطان في أمور منها :إنه يتميز باستقلالية نقدية، وتفرده بإحكام ونقده لآراء كثير من العلماء وعدم التسليم لهم إلا بدليل وتتجلى أخلاقه في أنه يتميز بالإنصاف والاعتدال والدقة في النقد فهو لا يجرح أحدا بلا سبب موجب، ولا يقبل نقد باقي العلماء من غير تدقيق أو تمحيص، وأن حكمه على الرواة نابع من حنكة وتجربة وخبرة واسعة، وتتبعه لأحوال الرواة ومروياتهم.

يقول المراكشي " وكان ذاكرا للحديث مستبحرا في علومه، بصيرا بطرقه، عارفا برجاله، عاكفا على خدمته، ناقدا

(54) يُنظر: الذيل والتكملة لكتابي الموصول والصلة، الأنصاري الأوسي المراكشي، (20/5).

مميزا صحيحه من سقيمه، مثابرا على التلبس بالعلم. " [55]، و قال ابن الآبار في ترجمته: "كان من أبصر الناس بصناعة الحديث وأحفظهم لأسماء رجاله وأشدهم عناية بالرواية رأس طلبة العلم بمراكش. " [56]

وهذا لإنصافه وعدله.

وقال عنه ابن حيان: "كان ابن القطان أحفظ الناس للمدونة والمستخرجة وأبصر أصحابه بطرق الفتيا والرأي، وكان ينكر المنكر، ويكره الملاهي وكان أبوه وليا لله من الزهاد"[57] ولما التقى ابن دقيق العيد بالعبدري قال له في أول ما رآه:"كان عندكم بمراكش رجل فاضل. فقال العبدري: من هو؛ فقال: أبو الحصن بن القطان، وذكر كتابه بيان الوهم والإيهام وأثنى عليه". [58]، فكان رجل فاضل من العباد الزهاد الأولياء.

وابن القطان من العلماء الجهابذة الأفذاذ الذين أبلوا شبابهم في خدمة حديث رسول الله ﷺ بتتبع أحوال الرواة ومروياتهم وحرصه الدقيق على التثبت من الحكم قبل إصداره، وهذا لا يكون إلا من رجل يخشى الله تعالى ويتقيه, فمجهود هذا العالم المغربي في الجرح والتعديل كثيرة، وهذا كله لا يزيدنا إلا توثقا من أن المغرب فيه من العلماء ما نفتخر بهم ونتشرف بهم.

موقعه في الجرح التعديل:

ولم يكن المغاربة فقط هم الذين يثنون على أخلاق ابن القطان، بل أهل المشرق بهروا به عندما قرؤوا كتبه، واطلعوا على جهوده الحديثية وخاصة كتاب: "الوهم والإيهام"، فهذا الذهبي، ينعت ابن القطان بحافظ المغرب، ويذكره ضمن من يعتمد قوله في الجرح والتعديل [59]، وهذا إن دل إنما يدل على إنصافه وعدله.

وكان ابن القطان محدثا جليلا له مكانة مرموقة في عهد الموحدين، وكان رأس طلبة العلم الشرعي في عهده ويعد ممن تمرسوا في فن الحديث وتكلموا في تعديل الرواة وجرحهم وكشفوا عن علل الحديث الخفية، ولا يقدر على

(55) نفس المصدر، (20/5).

(56) يُنظر: تذكرة الحفاظ، الذهبي (134/4).

(57) سير أعلام النبلاء، (306/18).

(58) الأعلام، للزركلي، (331/4).

(59) يُنظر: تذكرة الحفاظ، الذهبي (134/4).

ذلك إلا الحذاق والجهابذة أصحاب البصيرة النافذة وقوة الحافظة، ومن آثاره المتداولة في أيدي الناس كتاب بيان الوهم والإيهام الواقعين في كتاب الأحكام الوسطى لعبد الحق الاشبيلي رحمه الله، وهو يتكلم على الحديث جرحا وتعديلا، وهذا الكتاب شاهد عدل على وفور علمه وذكائه. (60)

الخاتمة:

أهم النتائج المتوصل إليها:

إن المحدثين نجحوا في مد مفهوم الأخلاق إلى جميع مفاصل الحياة قواعد وتصنيفا ومن أبرز مظاهر الأخلاق عند حديثهم عن حسن النية في الطلب والأداء، وتقدير من هو أكثر علما وعدم التقدم عليه، وتتجلى معالم الأخلاق أكثر عند المحدثين من خلال قواعد النقد التالية:

1-ذكر الجرح والتعديل في الراوي المختلف فيه وعدم الاقتصار على ذكر الجرح فقط.

2-عدم محاباة أحد من المجروحين قريبا كان أو بعيدا وذكره بما فيه من الجرح.

3-عدم الاعتداد بجرح الأقران وقد رد العلماء كلام بعضهم في بعض ولم يقبلوه، لأنه ناشئ عن حسد وعداوة.

4-عدم قبول الجرح إذا كان صادراً عن جهل أو هوى أو ضعف أو تعب أو اختلاف العقيدة.

5-عدم الزيادة في الجرح على القدر المطلوب.

6-عدم التعرض بالجرح لمن ليس بمجروح أو ليس من أهل الرواية.

7- شروط وقواعد للجرح لا يقبل بغيرها.

8-اختيار ألفاظ الجرح المناسبة لكل راو ضعيف.

وتظهر أركان الفعل الخلقي عند المحدثين من خلال:

(60) يُنظر: كتاب الإحكام لسياق ما لسيدنا ومولانا محمد من الآيات البينات ولباهرات والأعلام، لابن القطان، (ص 25).

الإلزام عند المحدثين هو القاعدة الأساسية، والمدار، والعنصر النووي الذي يدور حوله كل النظام الأخلاقي

ويبرز مفهوم الإلزام عند المحدثين في روايتهم للأحاديث الذي ذكرت وجوب السنة باعتبارها مصدر تشريعي أساسي. ومنهج المحدثين تمثل بتحمل مسؤولية خلقية عظيمة ، تتمثل في التحري والتدقيق والنقد وجمع الحديث المبني على الأصول والقواعد ، البعيد عن الأهواء والنزعات.

وللأخلاق دور في التصنيف الحديثي والتبويب تظهر في: مصنفات شاملة للأخلاق وغيرها، ومصنفات مختصة بالأخلاق.

ثم بعدها تناول البحث الأخلاق عند الإمام ابن القطان:

الذي كان له باع كبير في علوم السنة النبوية وخاصة الجرح والتعديل دون تفريط أو تقصير، ناقدا مميزا صحيح الحديث من سقيمه، مثابرا على التلبس بالعلم، فكان رجل فاضل من العباد الزهاد أولياء الله.

وهو من العلماء الجهابذة الأفذاذ الذين أبلوا شبابهم في خدمة حديث رسول الله ﷺ يتتبع أحوال الرواة ومروياتهم ويحرص على التثبت من الحكم قبل إصداره، وهذا لا يكون إلا من رجل يخشى الله تعالى ويتقيه، دو قيم نبيلة.

المصادر والمراجع:

- ✓ ابن منظور، جمال الدين محمد بن مكرم، لسان العرب، بيروت، دار صادر، د.ت.
- ✓ البغا، مصطفى، نظام الإسلام، دمشق، المطبعة التعاونية، د.ط، 1401هـ- 1981م.
- ✓ تهذيب الأخلاق وتطهير الأعراق، أبو علي أحمد بن محمد بن يعقوب مسكويه (المتوفى: 421هـ)، حققه وشرح غريبه: ابن الخطيب، الناشر: مكتبة الثقافة الدينية، الطبعة: الأولى.
- ✓ يالجن، مقداد، التربية الأخلاقية الإسلامية، الرياض، دار عالم الكتب، ط3، 1423هـ.
- ✓ الصنيع، صالح بن إبراهيم، دراسات في علم النفس من منظور إسلامي، الرياض، دار عالم الكتب، ط1، 1423هـ.
- ✓ تهذيب الأخلاق في الإسلام، خيشة، عبد المقصود عبد الغني، القاهرة، دار الثقافة العربية، 1412هـ- 1991م.
- ✓ تذكرة الحفّاظ، للإمام الذهبي (ت 748 هـ)، دار إحياء التراث العربي.

✓ جذوة الاقتباس في من حل من الأعلام بمدينة فاس، لأحمد بن أحمد المكناسين (نقلا عن كتاب إحكام النظر تحقيق الصمدي) .
✓ الذيل والتكملة لكتابي الموصل والصلة، لمحمد بن عبد الملك الأنصاري المراكشي، دار الثقافة بيروت.
✓ التعديل والتجريح لمن خرج له البخاري في الجامع الصحيح، أبو الوليد سليمان بن خلف بن سعد بن أيوب بن وارث التجريبي القرطبي الباجي الأندلسي (المتوفى: 474هـ)، تحقيق د/ أبو لبابة حسين، دار اللواء للنشر والتوزيع ط الأولى 1986م.
✓ دلائل النبوة ومعرفة أحوال صاحب الشريعة، البيهقي أحمد بن الحسين، تحقيق د. عبد المعطي قلعجي دار الكتب العلمية بيروت، ط الأولى 1985م.
✓ نضرة النعيم في مكارم أخلاق الرسول الكريم، عدد من المختصين بإشراف الشيخ/ صالح بن عبد الله بن حميد إمام وخطيب الحرم المكي، الناشر: دار الوسيلة للنشر والتوزيع، جدة، الطبعة: الرابعة.
✓ دستور الأخلاق في القرآن، محمد بن عبد الله دراز (المتوفى: 1377هـ)، الناشر: مؤسسة الرسالة، الطبعة: العاشرة 1418هـ / 1998م.
✓ فصل الخطاب في الزهد والرقائق والآداب، محمد نصر الدين محمد عويضة.
✓ علم الأخلاق الإسلامية، مقداد يالجن محمد علي، الناشر: دار عالم الكتب للطباعة والنشر – الرياض، الطبعة: الأولى 1413هـ- 1992م الطبعة الثانية 1424هـ-2003م.
✓ شرح صحيح البخاري، ابن بطال أبو الحسن علي بن خلف بن عبد الملك (المتوفى: 449هـ)، تحقيق: أبو تميم ياسر بن إبراهيم، دار النشر: مكتبة الرشد – السعودية، الرياض، الطبعة: الثانية، 1423هـ - 2003م.
✓ نزهة النظر في توضيح نخبة الفكر في مصطلح أهل الأثر، أبو الفضل أحمد بن علي بن محمد بن أحمد بن حجر العسقلاني (المتوفى: 852هـ)، حققه على نسخه مقروءة على المؤلف وعلق عليه: نور الدين عتر، الناشر: مطبعة الصباح، دمشق، الطبعة: الثالثة، 1421 هـ - 2000 م.
✓ نزهة النظر في توضيح نخبة الفكر في مصطلح أهل الأثر، أبو الفضل أحمد بن علي بن محمد بن أحمد بن حجر العسقلاني (المتوفى: 852هـ)، المحقق: عبد الله بن ضيف الله الرحيلي، الناشر: مطبعة سفير بالرياض، الطبعة: الأولى، 1422هـ.
✓ الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع، أبو بكر أحمد بن علي بن ثابت بن أحمد بن مهدي الخطيب البغدادي (المتوفى: 463هـ)، المحقق: د. محمود الطحان، الناشر: مكتبة المعارف – الرياض.

✓ مجموع الفتاوى، تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحليم بن تيمية الحراني (المتوفى: 728هـ)، المحقق: عبد الرحمن بن محمد بن قاسم، الناشر: مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف، المدينة النبوية، المملكة العربية السعودية، عام النشر: 1416هـ/1995م.
✓ معرفة أنواع علوم الحديث، ويُعرف بمقدمة ابن الصلاح، عثمان بن عبد الرحمن، أبو عمرو، تقي الدين المعروف بابن الصلاح (المتوفى: 643هـ)، المحقق: نور الدين عتر، الناشر: دار الفكر- سوريا، دار الفكر المعاصر – بيروت، سنة النشر: 1406هـ - 1986م.
✓ الموقظة في علم مصطلح الحديث، شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان بن قَايْماز الذهبي (المتوفى: 748هـ)، اعتنى به: عبد الفتاح أبو غُدّة، الناشر: مكتبة المطبوعات الإسلامية بحلب، الطبعة: الثانية، 1412 هـ.
✓ الإلزام والمسؤولية الخلقية عند المحدثين والفقهاء في الإسلام وارتباطها بالإيمان الدكتور ة بدرية محمد عبد الله الفوزان، جامعة الملك سعود كلية التربية، دراسات إسلامية الرياض 1440هـ.
✓ معجم مقاييس اللغة، أحمد بن فارس بن زكرياء القزويني الرازي، أبو الحسين (المتوفى: 395هـ)، المحقق: عبد السلام محمد هارون، الناشر: دار الفكر عام النشر: 1399هـ - 1979م.
✓ المعجم الوسيط مجمع اللغة العربية بالقاهرة، (إبراهيم مصطفى / أحمد الزيات / حامد عبد القادر / محمد النجار)، الناشر: دار الدعوة.
✓ كتاب التعريفات، علي بن محمد بن علي الزين الشريف الجرجاني (المتوفى: 816هـ)، المحقق: ضبطه وصححه جماعة من العلماء بإشراف الناشر، الناشر: دار الكتب العلمية بيروت –لبنان، الطبعة: الأولى 1403هـ -1983م.
✓ كتاب الإحكام لسياق ما لسيدنا ومولانا محمد من الآيات البينات ولباهرات والأعلام، لابن القطان، عن مقدمة المحقق، الدكتور محمد منير أظهر، (1433هـ) -(2012م).
✓ التقريب والتيسير لمعرفة سنن البشير النذير في أصول الحديث، أبو زكريا محيي الدين يحيى بن شرف النووي (المتوفى: 676هـ)، تقديم وتحقيق وتعليق: محمد عثمان الخشت، الناشر: دار الكتاب العربي، بيروت، الطبعة: الأولى، 1405 هـ - 1985 م.
✓ الرفع والتكميل في الجرح والتعديل، محمد عبد الحي بن محمد عبد الحليم الأنصاري اللكنوي الهندي، أبو الحسنات (المتوفى: 1304هـ)، المحقق: عبد الفتاح أبو غدة، الناشر: مكتب المطبوعات الإسلامية – حلب، الطبعة: الثالثة، 1407هـ.

✓ تحرير علوم الحديث، عبد الله بن يوسف الجديع، الناشر: مؤسسة الريان للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت – لبنان، الطبعة: الأولى، 1424 هـ - 2003 م.
✓ المجروحين من المحدثين والضعفاء والمتروكين، محمد بن حبان بن أحمد بن حبان بن معاذ بن مَعْبدَ، التميمي، أبو حاتم، الدارمي، البُستي (المتوفى: 354هـ)، المحقق: محمود إبراهيم زايد، الناشر: دار الوعي حلب، الطبعة: الأولى، 1396هـ.
✓ تدريب الراوي شرح تقريب النووي، السيوطي، جلال الدين، تحقيق: أبو قتيبة نظر محمد الفارابي، دار طيبة.
✓ منهج النقد في علوم الحديث، **عتر**، نور الدين، دار الفكر المعاصر دمشق.

✓ مصنف بن أبي شيبة، أبو بكر بن أبي شيبة، تحقيق كمال يوسف حوت، مكتبة الرشد- الرياض، 1407.
✓ الذيل والتكملة لكتابي الموصول والصلة، أبو عبد الله محمد بن محمد بن عبد الملك الأنصاري الأوسي المراكشي (المتوفى: 703 هـ)، حققه وعلق عليه: الدكتور إحسان عباس، الدكتور محمد بن شريفة، الدكتور بشار عواد معروف ،الناشر: دار الغرب الإسلامي، تونس ،الطبعة: الأولى، 2012 م.
✓ الموقظة في علم مصطلح الحديث، شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان بن قَايْماز الذهبي (المتوفى: 748هـ)، اعتنى به: عبد الفتاح أبو غُدّة، الناشر: مكتبة المطبوعات الإسلامية بحلب، الطبعة: الثانية، 1412 هـ.
✓ التعديل والتجريح، لمن خرج له البخاري في الجامع الصحيح، أبو الوليد سليمان بن خلف بن سعد بن أيوب بن وارث التجيبي القرطبي الباجي الأندلسي (المتوفى: 474هـ)، المحقق: د. أبو لبابة حسين، الناشر: دار اللواء للنشر والتوزيع – الرياض، الطبعة: الأولى، 1406 – 1986.
✓ مكانة الأخلاق عند أهل الحديث ودروها في التصنيف عندهم، محمد صديق، باحث دكتوراه في قسم الحديث في كلية الإلهيات، جامعة نجم الدين أربكان.
✓ طرح التثريب في شرح التقريب، أبو الفضل زين الدين عبد الرحيم بن الحسين بن عبد الرحمن بن أبي بكر بن إبراهيم العراقي (المتوفى: 806هـ)، أكمله ابنه: أحمد بن عبد الرحيم بن الحسين الكردي الرازياني ثم المصري، أبو زرعة ولي الدين، ابن العراقي (المتوفى: 826هـ)، الناشر: الطبعة المصرية القديمة.
✓ تذكرة الحفاظ، شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان بن قَايْماز الذهبي (المتوفى: 748هـ)، الناشر: دار الكتب العلمية بيروت-لبنان، الطبعة: الأولى، 1419هـ- 1998م.

✓ الأعلام، خير الدين بن محمود بن محمد بن علي بن فارس، الزركلي الدمشقي (المتوفى: 1396هـ)، الناشر: دار العلم للملايين، الطبعة: الخامسة عشر – أيار / مايو 2002 م.